مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

- المنتدى التربوي و إرساء مدرسة النجاح
- التدريس بالمجزوءات
- تطبيقات على البيداغوجيا الفارقية
- الدرس العلمي والتغيير الاجتماعي
- الاحترافية في التدريس
- المدرسون تحت المجهر
- تقويم كفايات التلاميذ
- ظاهرة الغياب المدرسي

العدد السادس والأربعون -دجنبر 2010

التأويل الاستعاري عند الطفل

الظاهرة والنماذج

✍ إبراهيم أسيكار*

تقديم

لا شك أن أي مهتم بالتأويل وقضاياه، سيدرك بلا عناء أن ما يُعرف اليوم بنظرية التأويل قد ركزت أسئلتها النظرية والتطبيقية على النشاط التأويلي لدى الفرد الراشد المتأدب. كما لو أن التأويل بما هو مَلَكة إنسانية فطرية تتيح للأذهان الانتقال من حالة سوء الفهم La mécompréhension إلى حالة الفهم La compréhension، يَهمّ الراشدين المتأدبين من الناس دون الصغار. بيد أنه لا يخفى اليوم في ضوء نتائج أبحاث العلم المَعرفي Sience cognitive أن معارف الأطفال هي نتاج منطق فريد أساسه جدلية السؤال والجواب التي تعتبر من جهتها مهماز قدرة الذهن البشري على ممارسة التأويل. وبصرف النظر عن أطروحات السيكولوجيا التقليدية التي لم تأبه بالشكل الذي يجب للقدرات التأويلية لدى الأطفال، يثبت الواقع والبحث العلمي المعرفي الحديث أن للأطفال الصغار هم أيضا قدرات تأويلية يسخّرونها من أجل فهم ما يستبهم عليهم من معان في المقامات التواصلية المختلفة. ومن أجل إضاءة هذه المعطى، سنركز اهتمامنا في هذه الدراسة على طبيعة التأويل الاستعاري عند الطفل ممهدين لذلك ببث التساؤلات الآتية:

- ما طبيعة الوعي اللساني الذي يملكه الطفل ويستخدمه من أجل تأويل المعرفة الاستعارية التي يتلقاها عن غيره؟

---

* باحث في التواصل وتحليل الخطاب

- ما طبيعة التمثيل الموسوعي Représentation encyclopédique الذي يصدر عنه هذا الوعي اللساني؟
- ما المرحلة العُمرية التي يقدر فيها الطفل على تأويل ما يتلقاه من معارف استعارية؟
- ما هي أنماط التأويلات الاستعارية التي يقدر الطفل على إنجازها؟

الطفل والتأويل الاستعاري

لا ريب أن قدرة الطفل على إنتاج المعرفة الاستعارية، لا يوازيها إلا قدرته على فهمها وتأويلها، أو بعبارة أحمد أوزي « قدرة الأطفال على الخيال لا تعادلها إلا قدرتهم على تصديقه» [1]. وذلك بالنظر إلى ما لكل طفل من مؤهلات تسعفه على إنجاز جملة من العمليات الذهنية التي تتوقف عليها عملية الفهم والتأويل بصفة عامة: كالتحليل والتصنيف والاستقراء والاستنباط والتعميم والكَفّ... ومجموع هذه المؤهلات هي التي تخلق لدى الطفل وعيا ميتالسانيا [2] méta-linguistique(*) يستطيع بواسطته إقامة مسافة بينه وبين ما يتلقاه من معارف قصد تحويله إلى موضوع للتفكير والتأمل. ذلك ما أكدته بعض الأبحاث الحديثة باللغة الفرنسية [3](*) (*) حيث توصلت إلى أن الطفل يقدر منذ السنة الثانية من عمره على إنجاز جملة من المهارات الميتالسانية، وهي السنة نفسها التي سبق أن أشرنا إلى أن الطفل يقدر فيها على إنتاج المعرفة الاستعارية. [4](*) (*)

ويبقى من المهم أن نلاحظ هنا أن الوعي الميتالساني الذي يعكس قدرة الطفل على التأويل، كان موضوعا لأطروحتين علميتين مختلفتين هما: أطروحة الوعي اللساني المبكّر وأطروحة الوعي اللساني المتأخّر. وبصرف النظر عن تصورات الأطروحة الثانية التي يُميز أصحابها أمثال: ومبر Gombert وبرتود ببندروبولو«Berthoud Papandropoulou ... في الاكتساب المعرفي عند الطفل بين مرحلتين، « مرحلة الاكتساب اللغوي، حيث يستطيع الطفل القيام بأنشطة الفهم والإنتاج، وهي عبارة عن سيرورة أوتوماتيكية ولاواعية ولا تتطلب أي مجهود، وبين القدرة على التفكير في هذه الأنشطة نفسها وإنتاج معرفة حولها وإصدار أحكام عليها. وهذه المهارة أو القدرة الميتالسانية لا يكتسبها الطفل إلا في المدرسة أثناء تعلم القراءة والكتابة»[5]، نجد أصحاب أطروحة الوعي اللساني المُبكر أمثال طوليلToueelle ولارك وصلوبينSlobin يدافعون عن طرح مؤداه أن الطفل « يهتم باللغة التي يتكلمها أو يسمعها منذ مرحلة الاكتساب اللغوي، أي ابتداء من السنة الثانية، فهو يسأل عن أسماء الأشياء والموضوعات ويستغرب

لسماع كلمات مركبة أو غريبة عنه، ويلعب بالكلمات ويصحح أخطاءه وأخطاء الآخرين. كما يستطيع التمييز بين لغته ولغة أجنبية ... ويستطيع إصدار أحكام حول بعض الملفوظات ... وكل هذه الأنشطة والمهارات لا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال مجرد ظاهرة عادية أو عديمة الأهمية، أو مجرد سلوك يتحقق بشكل إرادي أوتوماتيكي» [6].

و قد وجدت أطروحة الوعي اللساني المُبكر ما يعزز طرحها في جملة من التجارب العلمية التي أثبتت أن الطفل يمتلك فعلا وعيا ميتالسانيا يعكسه رصيده المعجمي الغني بالصيغ ذات الصلة بالنشاط التأويلي . ومن هذه التجارب، التجربة المشهورة التي أجراها صلوبين على ابنته هيدا Heida ، وهي التجربة التي أسفرت عن « نتيجة مفادها أن ابنة صلوبين استطاعت في ثلاث سنوات وأربعة أشهر تكوين رصيد ميتالساني مهم واستعمال بعض الصيغ من قبيل: هذا يعني، هذا يُسمى، قال، تكلم عن، هذا يشبه ...»[7].

و لئن كان النشاط التأويلي مثلما يرى امبرتو إيكو Umberto Eco،((*)***)) يتوقف على تشغيل المُؤوّل موسوعته باعتبارها الرصيد المعرفي والذاكرة التأويلية الرحبة المتاحة لكل فرد غير معزول عن المجتمع، فإن قدرة الطفل على فهم وتأويل المعرفة الاستعارية، مثلما سنبين لاحقا، يبقى أمرا مستبعدا بالنسبة للأبحاث السيكولوجية التقليدية التي تتصور أن طفل السنة الثانية أو أكثر بقليل لا يقدر على النشاط التأويلي لِضُعْف اشتغاله الذهني وتمركز تفكيره حول ذاته وفقر موسوعته ...

وفي مقابل ذلك، قالت السيكولوجيا الحديثة ذات التوجه المعرفي cognitif بتوفر كل طفل منذ عمر مبكر على قدرات ذهنية مختلفة ومتنافسة، فضلا عن تمثلات ومعارف تتماشى مع تأويلاته وطريقة فهمه الخاصة للمعارف التي يتلقاها. وقد برز هذا التحول في السيكولوجيا المعرفية منذ أن أنشأ كل من ميلرMiller وبرينرBruner أواخر ستينيات القرن العشرين « معهد هارفارد للدراسات المعرفيةHarvard center of cognitive الذي ارتبط هدفه الأساسي ببناء السيكولوجيا على أسس براديغم جديد قوامه ردّ الاعتبار للذهن قصد دراسة استراتيجيات التفكير وتصورات الأشخاص للكون أثناء التفكير، وبالتالي اقتحام خبايا العُلبة السوداء للذهن الإنساني» [9].

ضمن هذا التوجه السيكولوجي الجديد، يعتبر اتجاه « نظرية النظريات»théorie des théories الذي ظهر مع نهاية ثمانينيات وبداية تسعينيات القرن العشرين، أهم الاتجاهات السيكولوجية المعرفية التي أبرزت من خلال أعمال ميلو Milot وويلمان Willman وسبليك

Spelk وندال Nadal ، مدى غِنى المعارف التي تستند إليها عملية الفهم عند الطفل. وقد كشف هؤلاء الباحثون عن هذه الحقيقة انطلاقا من الإجابة عن أسئلة من قبيل: [10]

- كيف ينتج الأطفال فهمهم الشخصي حول مكونات العالم الذي يحيط بهم؟
- هل يستطيعون إيجاد تعليل لآليات إنتاج هذا الفهم؟
- إلى أي حد يتمكنون من تفسير سلوكات الآخرين أطفالا مثلهم كانوا أم راشدين؟

لقد جاءت إجابة « نظرية النظريات» عن مجموع هذه الأسئلة، لإخراج السيكولوجيا التقليدية من المأزق الذي وقعت فيه، حينما نظرت إلى الرصيد المعرفي الذي تستند إليه الذاكرة التأويلية للطفل، على أنه رصيد هزيل لا يُوفر للآليات الذهنية التي يتوقف عليها النشاط التأويلي مادتها الخام. وخلافا لهذا التصور، رأى أصحاب « نظرية النظريات» أن كل طفل يمتلك منذ عمر مبكر « معارف يعمل على تنظيمها في نظرية قائمة بذاتها وتتميز بمجموعة من الخاصيات تتمثل في تماسكها وانسجامها، كما تتوفر هذه المعارف على ميادين متخصصة ومضامين متنوعة، وهذا ما يجعلها قابلة للتصنيف في إطار نظرية تقارَن بالنظرية العلمية » [11].

و بصرف النظر عن سذاجة وتلقائية هذه النظرية حسب ما ترى ميلو، فإنها تُمكِّن الطفل من رصيد معرفي غني يتيح تأويل ما له صلة بالذات والعالَم واللغة. وتتوزع مصادر هذا الرصيد المعرفي حسب ما يرى كاريKarey على ثلاثة ميادين هي: [12]

- الميدان البيولوجي: وهو الذي تنطوي فيه نظرية الطفل على أفكار واعتقادات حول الحياة والموت والطفولة والشيخوخة ...
- الميدان الفيزيائي: وفيه تحتوي نظرية الطفل على مكونات وخاصيات الأشياء الجامدة وتفاعلاتها السببية.
- الميدان النفسي: وتنبني فيه معرفة الطفل على معرفة الحالات الذهنية الداخلية والجوانب الإدراكية الوجدانية كالذهن والتفكير والإدراك والنسيان والانفعال والكلام.

بعد أن مكننا ما تقدم من إبراز ما يمتلكه الطفل من وعي ميتالساني يتيح له تحويل ما يتلقاه عن غيره من معرفة إلى موضوع قابل للتأويل، وذلك بعد تسخير رصيد معرفي غني هو في منزلة موسوعة مستوحاة من ميادين مختلفة، سننتقل الآن إلى تعرّف أنماط التأويل الاستعاري التي يتيحها استثمار الطفل وعيه الميتالساني ورصيده الموسوعي. وسنعتمد في ذلك

على تجربتين: أولاهما قام بها واينر Winner وآل Al، والثانية أوردها نيكول واتو Nicole wateau . بالنسبة للتجربة الأولى تم إجراؤها على مائة وثمانين طفلا تقل أعمارهم عن أربع عشرة سنة، وكان موضوع هذه التجربة يتعلق بمطالبة العيّنة المبحوثة من الأطفال بتفسير/ تأويل استعارة السجان صخرة « Le gardien de prison est un roc».

لقد أسفرت هذه التجربة - حسب ما أفادنا به عبد الإله سليم . عن تقديم الأطفال المبحوثين أربعة أنماط من التفسير / التأويل هي: (13)

1 - تفسير سِحري : يقوم الأطفال في هذا التفسير بتخيل عالم يصدق فيه قياس السجان على الصخرة، إذ يتحول السجان إلى حجر حقيقة، وقد ورد هذا التفسير لدى الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات وسبع سنوات. والملاحظ أن هذا التفسير ليس سحريا بل حرفيا، لأن هؤلاء الأطفال اعتبروا السجان والصخرة موضوعين ينتميان إلى الحقل الدلالي نفسه.

2 - تفسير كِنائي : في هذا التفسير يفسر الأطفال الاستعارة المعطاة على أساس جواري، أي أن هناك علاقة جوار بين السجان والسجن، فالسجن صخري بدل السجان. فينتقل معنى الاستعارة المقترحة إلى شيء يشبه « يشتغل السجان في سجن صخري». وقد تكرر هذا النوع من التفسير لدى الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ست وثمان سنوات.

3 - تفسير بدائي : مع هذا النوع من التفسير يتجاوز الأطفال الأكثر سِنا التفسيرين السحري والكنائي إلى تفسير يَفهم الاستعارة المعطاة فهما بدائيا. يلاحظ الطفل هنا المشابهة بين السجان والصخرة لكن فهمه يقتصر على الجانب الحسي. إن السجان قوي العضلات صلب صلابة الصخرة. وقد اطرد هذا التفسير لدى الأطفال البالغين ثمان وتسع سنوات.

4 - تفسير عبقري: في هذا النوع من التفسير ، يفهم الطفل أن طرفي الاستعارة ينتميان إلى مجالين مختلفين كما يفهم فيه الجهة النفسية للاستعارة، حيث يُضمر سمات كالصلابة والقوة، وينشّط سمات كالقسوة والغلظة وانعدام الرحمة. وقد ورد هذا النوع من التفسيرات على لسان الأطفال البالغين عشر سنوات.

أما التجربة الثانية فتتعلق بمطالبة عيّنة من الأطفال بتأويل استعارة « تجرح الشهب الاصطناعية السماء « Les feux d'artifice blessent le ciel.(14) وقد أوّل أحد الأطفال الذي يبلغ عمره تسع سنوات وثلاثة أشهر هذه الاستعارة بقوله: الشهب الاصطناعية تخلق دوائر وخطوطا، إنها تنفجر محدثة أشكال ذات ألوان، الأحمر يجرح أكثر من الأزرق. وأوّل طفل

آخر يبلغ عمره عشر سنوات الاستعارة نفسها قائلا: الشهب الاصطناعية تؤلم السماء، وقع انفجار في السماء، إنها طلقات نارية، الأحمر يجرح كثيرا.

خاتمة

هل بوسعنا أن نخلص من التأويلات التي أفضت إليها التجربتان السابقتان إلى الآليات الخاصة بالتأويل الاستعاري عند الطفل؟ لقد تعمدنا طرح هذا السؤل أمام تغافل الدرس السيكولوجي التقليدي عن تقديم رؤية واضحة بخصوص الآليات المعتمدة من لدن الأطفال في تأويل البنيات اللغوية بصفة عامة والبنيات اللغوية الاستعارية بصفة خاصة. ونحن إذا نظرنا إلى مجموع التأويلات السابقة التي كشفت عنها التجربتان السابقتان أمكننا أن نخرج بالخلاصات الآتية:

- لكل طفل مؤهلات استدلالية مبكرة، تمكنه من الانتقال بالمعنى اللغوي من مستوى إلى آخر.
- تأويل الطفل اللغة الاستعارية تأويل متدرج يخضع لاعتبارات عمرية، إذ يكون سحريا فكنائيا فبدائيا فعبقريا.
- يفكك التأويل الاستعاري عند الطفل البنية اللغوية البسيطة إلى موضوعين لكل واحد منهما سمات دلالية خاصة.
- يتأثر التأويل الاستعاري لدى الطفل بنوعية الموسوعة الثقافية السائدة في المجتمع الذي يعيش فيه.
- يستند التأويل الاستعاري لدى الطفل إلى مجموعة من الآليات أهمها :

* آلية المشابهة analogie ، وبواسطتها يكتشف الطفل السمات المشتركة بين موضوعي البنية اللغوية الاستعارية.

* آلية السّحب والتعميم généralisation ، وبها يستطيع الطفل سحب وتعميم السمات الدلالية للموضوعات الأكثر ألفة على الموضوعات الأقل ألفة.

* آلية العَزْو السببي Attribution causal : التي يستسيغ بها الطفل حضور السمات الدلالية لأحد موضوعي البنية اللغوية الاستعارية في الموضوع الآخر.

* آلية الكَفّInhibition، وهي الآلية الذهنية الإرادية التي يستطيع بها الطفل تعليق وتعطيل بعض السمات الدلالية لأحد موضوعي البنية اللغوية الاستعارية بسبب عدم مناسبتها التأويل المراد.

الهوامش

1 – أحمد أوزي: (بنيات النظام المدرسي وخنق الابتكار)، مجلة : علوم التربية، العدد: 10، سنة: 1996، ص: 17.

2 (*) : وجب التنويه هنا بأننا نقصد بالوظيفة الميتالسانية، مثلما حددها رومان جاكوبسون، القدرة على وصف اللغة بواسطة اللغة.

3 (**) : (Compréhension des énoncés métaphoriques chez l'enfant). Nicole Watteau: In: Langue française. Vol: 129. N: 1.1996.

4 (***) : للتوسع ترجى العودة إلى دراستنا «الطفل وإبداع المعرفة الاستعارية»، التي نشرناها في العدد: 42 من مجلة: علوم التربية .

5 – إسماعيل علوي: (نمو الوعي اللساني وسيرورة اكتساب اللغة عند الطفل)، مجلة: علوم التربية، العدد: 29، سنة: 2005، ص: 17.

6 – إسماعيل علوي: المرجع نفسه، ص: 18.

7 – إسماعيل علوي: المرجع نفسه، ص: 18.

8 (****) : Umberto Eco : Le signe. histoire et analyse d'un concept. ed. labor . .... Bruxelles.1988. p :144

9 – الغالي أحرشاو: (السيكولوجيا الحديثة، من المقاربة السلوكية إلى المقاربة المعرفية)، « سيكولوجية الطفل. مقاربات معرفية» . ص: 10.

10 – محمد كجي: (التعلم وتربية الذهن على الاشتغال) ، مجلة: علوم التربية، العدد: 36، سنة: 2008، ص: 50.

11 – إسماعيل علوي: المرجع نفسه، ص: 29.

12 – الغالي أحرشاو: المرجع نفسه، ص : 16.

13 – عبد الإله سليم: بنيات المشابهة في اللغة العربية، مقاربة معرفية، ص: 79 – 80. وجدير بالذكر أن تأويل هذه الاستعارة أورده أيضا Marie-claude Fourmet, Nelly Emmenecker و Valérie Pantz في دراستهم « Etude de la production de métaphores chez des enfants de 3 a 7 ans . ص : 538.

14 Nicole watteau : (compréhension des énoncés métaphoriques chez l'enfant). p: 75 :